بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

تستند الرؤية الصهيونية في احتلال فلسطين على إحدى المقولات التوراتية التي تدعي أن الرب منح أجداد اليهود أرض الميعاد فلسطين. فإضافة للمطامع الاستعمارية الغربية والصهيونية وجدوا في المقولة الدينية حجة لاستعمار هذا البلد العربي.

وبسبب من الإهمال وعدم دراسة نصوصهم الدينية من قبلنا ـ نحن أصحاب الحق ـ استطاعوا أن يضللوا العالم بأساليبهم الإعلامية والسياسية، واستطاعوا من ثَمّ غسل أدمغة أبناء الشعوب، حتى بات الكثيرون يدافعون عن وجهة نظرهم القائلة بأن فلسطين أرض لهم منذ آلاف السنين. ولمّا كان تبيان الحق وإظهاره أحد أساليبنا في الدفاع عن حقوقنا العربية والإسلامية في هذه الأرض المباركة كان لابد لنا من مخاطبة العقل والمنطق؛ حتى نصل في النهاية إلى مسببات إدامة الصراع وحسْمِه مهما كان والانتصار لحقنا.

ولهذه الأسباب وأسباب أخرى كان بحثنا، فهو يتناول قضية القدس باعتبارها القضية المركزية اليوم للعرب والمسلمين، فهي قلب فلسطين، والمكان المقدس المرتبط بالبيت الحرام ارتباطاً قرآنياً مهماً. فهي قبلة المسلمين الأولى وثالث الحرمين الشريفين. ويقيننا يرى أن الصراع مع المحتل الصهيوني سيحتدم ولن يموت مادامت فلسطين والقدس المباركة محتلتين.

وقد اعتمدنا في هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. وتتناول المقدمة أهمية القدس وعلاقتها بالمنظور الصهيوني، وأهميتها وعلاقتها

بالرؤية العربية الإسلامية. وأشرنا فيها إلى أهمية العلاقة القدسية بالله، وأن المقدس الإلهي غير المقدس البشري. والرؤية القرآنية تؤكد على هذه القدسية بينما لا قدسية إلهية في التوراة لهذا المكان المقدس.

أما الفصل الأول فتناولنا فيه فلسطين والقدس في التاريخ القديم بدءاً من الهجرات العربية الأولى، وبيّنا أن الكنعانيين العرب أقاموا في فلسطين حضارة لها عقائدها وتراثها وتحركاتها التجارية والعمرانية، ثم كيف تعرضت هذه المنطقة لغزوات وصراعات بين القوى الكبرى آنذاك. فالفراعنة، والبابليون تصادموا وتصارعوا حتى تبقى أرض فلسطين الجدار الأول لحماية مناطق نفوذهم.

ثم تعرضت فلسطين لغزوات بحرية قام بها غزاةُ البحر القادمون من بحر إيجة، ولغزوات قدمت من الجنوب من قبل القبائل البدوية العبرانية. وقد ركزنا في هذا الفصل على معابد الكنعانيين وعقائدهم ومكانة القدس بالنسبة لهم. وقد بينا طبيعة تلك المعابد وأماكن وجودها والطقوس التي كانت تقام فيها. والمدن الكنعانية التي تنتشر في سائر أنحاء فلسطين. وباعتبار أن النبي إبراهيم عليه السلام شخصية تاريخية ودينية مهمة، فقد تحدثنا عن هجرته القسرية من العراق إلى فلسطين، وكيف استطاع أن يتواصل مع سكان المنطقة من خلال نشره عقيدة التوحيد، ومن ثَمَّ انتقاله إلى مكة وبنائه الكعبة الشريفة لتكون محجاً للناس جميعاً، تربطهم بعقيدة التوحيد، لقد امتنعت التوراة عن ذكر علاقة إبراهيم عليه السلام بمكة وبنائه الكعبة، وكان القصد من وراء ذلك تزييف حقيقة دينية كبرى. لكن القرآن الكريم فضح ألاعيبهم وتزييفهم الحقيقة. فما كان إبراهيم يهودياً إنما كان موحداً عالمياً. وربطت رحلته المستمرة بين فلسطين ومكة بين مُقَدَّسين إلهين. اختارهما الله وخصهما بالتقديس والمباركة. ثم جاء إسراء رسول الله ﷺ من مكة إلى القدس ليؤكد اكتمال دائرة التوحيد التي بدأها إبراهيم عليه السلام بين مكة والأرض المباركة، وقد تعرضنا لمدينة القدس عبر التاريخ والتسميات التي سميت بها، وأسوارها وسكانها ومعابدها ومكانتها بالنسبة لأهلها الكنعانيين الذين سوروها وحافظوا عليها طوال تاريخها.

أما الفصل الثاني وهو من أهم فصول الكتاب فقد تناولنا مفهوم المقدس في التوراة. وبينا أن أسفار التوراة الخمسة الأولى لا تغير أي اهتمام ببيت المقدس ولا تأتي على ذكره مطلقاً، بل تركز على الوعد الإلهي المزعوم بمنح أرض فلسطين لهؤلاء الغزاة.

وحتى حين بدأ الغزو العبراني والتسرب السِّري إلى فلسطين لم تهتم نصوص التوراة بالقدس؛ لأنها بقيت بيد أهلها الكنعانيين محصنة قوية. وتركز التوراة على أهمية القدس منذ تولي داود عليه السلام الملك، وصارت تعتبر حصن صهيون أو قصر داود الذي يقع خارج أسوار القدس، مدينة داود والمركز الإداري والسياسي لتلك المملكة المحدودة. وحتى هذه الفترة لا نعثر في التوراة على أهمية القدس لدى أتباع دواد عليه السلام، فهي مركز سياسي ليس أكثر. وحين يتسلم سليمان عليه السلام الملك تبدأ قصة بناء الهيكل تأخذ أبعادها. فالذين دونوا التوراة في العهد البابلي أثناء سبيهم من قبل البابليين، ركزوا على أهمية هذا الهيكل وأنه صار بيتاً للرب. وعلى الرغم من ذلك فالتوراة تقول إن سليمان الذي كان قد تزوج ألف امرأة وضع لنسائه أصناماً وآلهة وثنية في هذا الهيكل يعبدنها كلٌ على طريقتها ومعتقدها. ولم يكن هذا الهيكل معبد توحيد بل كان معبداً وثنياً ليس أكثر.

ولقد أثبتت الكشوف الأثرية عدم وجود أي أثر لهذا الهيكل؛ لأنه أساساً بني من خشب الأرز، وتعرض حسب نص التوراة لعدة عمليات تدمير حتى أبيد عن الوجود في العصر الروماني، وحرثت أرضه ولم يعد أي أثر لأي بناء في المنطقة، ومع انقسام دويلة اليهود إلى قسمين أقام بعض المتهودّين معبداً في منطقة نابلس على أنقاض معبد كنعاني أطلقوا عليه معبد زربابل، وصار أهم معبد في ذلك الوقت، وهذا ما يدل على عدم وجود أي ارتباط بين قدسية القدس وبين القبائل البدوية اليهودية.

ومع السبي البابلي راح أنبياء التوراة بدءاً من إرميا ومروراً بحزقيال ودانيال وغيرهم يركزون على القدس باعتبارها المجد التاريخي التليد لهم. لكن هؤلاء الأنبياء

جميعاً هاجموا معبد الرب الذي كان في القدس؛ لأنه صار، حسب ما شاهدوه، معبد أوثان وماخور زناة ولصوص. وقد بشروا جميعاً بخرابه خراباً أبدياً. وذلك بسبب انحراف اليهود الكلي عن تعاليم رب التوراة.

لكن بدء العهد الفارسي وسقوط الدولة البابلية جعل اليهود يتحركون باتجاه فلسطين. وقد استفادوا من الوضع السياسي الجديد، وعاونوا الفرس في القضاء على الدولة البابلية، فكافأهم ملك الفرس كورش بعد أن زوجوه اليهودية إستير، بأن أوعز لهم بالذهاب إلى فلسطين. وعلى الرغم من ذلك فقد ذهب بعضهم إلى فلسطين وظل الكثيرون منهم في المنطقة لما تمتعوا به من نفوذ مالي واقتصادي في ظل الحكم الفارسي. وحاول بعض من ذهب منهم إلى فلسطين أن يشيدوا معبداً على غرار هيكلهم الذي جاءت على ذكره التوراة، لكن سكان الأرض الأصليين منعوهم، وبعد محاولات دامت عشرين عاماً تمكنوا من بناء معبد صغير وتحت حماية الفرس. ولم يستقر الوضع الديني لهم حتى جاءت الحملات اليونانية بقيادة الإسكندر فحاولوا استرضاءه والتملق له. نفضوا أيديهم من الفرس ليتعاونوا مع الحملة اليونانية الجديدة. وهكذا هو سبيلهم طوال تاريخهم المتنقل وغير المستقر. وعندما جاء الرومان الوثنيون هدموا معبد اليهود الجديد وطرد أكثرهم حتى جاءت بعثة السيد المسيح فعادوا وحاربوه وحاولوا قتله، لكن انتشار المسيحية حتى أوروبا في القرن الثالث الميلادي أدى إلى تدمير ما بقي لديهم وشتتوا مرة أخرى. وهكذا حتى جاء الفتح الإسلامي. فلم يكن في القدس إلى القليل من اليهود، فطلب أهل البلاد الأصليون طرد اليهود من بلادهم، وطردوا نهائياً من المنطقة طيلة ألف وثلاثمائة سنة.

وتأتي الصهيونية اليهودية لتركب موجة التوراة، وتدعي أن فلسطين أرض بلا شعب، حتى حان الوقت المناسب فتحالفت الصهيونية مع الغرب الصليبي منذ الحرب العالمية الأولى حتى عام 1948، حين انقض الغزاة الغربيون والمتهودون وأعلنوا قيام

الكيان الصهيوني. ومع حرب حزيران 1967 تصبح القدس بأيديهم ويعلنون أنها عاصمة كيانهم الأبدية. وهذا ما سنجده في الفصل الثالث من هذا الكتاب. وتساندهم الصهيونية غير اليهودية التي عمادها البروتستانت وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وتلتقي المصالح، وتصبح القدس بنظر الصهيونيتين: اليهودية والبروتستانتية مركز التوجه ضد العرب والمسلمين، ومركز الانطلاق للانقضاض على الشعب العربي وأرضه واستعمارها من جديد، أما الفصل الرابع فقد خصصناه لدراسة مفهوم القدس والمقدس في الرؤية الإسلامية استناداً على آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وحاولنا إلقاء الضوء على سورة الإسراء وما الذي يعنيه ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى، وما الإرهاصات التي تبشر المسلمين الموحدين بالنصر على المحتلين الصهاينة، معتمدين في ذلك التفسير اللغوي والتاريخي على ضوء ما درسناه أيضاً في التفاسير وفي المراجع التاريخية الأساسية التي تتحدث عن تاريخ المنطقة العربية، وخاصة القدس، وكذلك المراجع في علم الآثار وما يقوله العلماء الآثاريون حول ذلك.

أما الفصل الخامس فقد حاولنا فيه إلقاء الضوء على بيت المقدس وأهمية المسجد الأقصى للمسلمين عبر أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بيّنا الأهمية البالغة التي أولاها الخلفاء والولاة والقادة من المسلمين عرباً وغير عرب لمدينة القدس وقدسيتها. وما أنشىء حول المسجد الأقصى من مدارس تعد بالعشرات، ومن أماكن الاستراحة والسكن لطالبي العلم القادمين من كل أقطار العالم الإسلامي.

وأخيراً نرى أن الصراع حول القدس وفلسطين هو صراع مرير وطويل؛ لأن القدس هي مركز الصراع القديم بين قوى الشر والبغي وقوى التوحيد والخير، وكذلك ستكون مركز الصراع القادم بين القوى نفسها وفي القدس سوف يكون الصراع الدموي على أشده، لأن الله سبحانه بشر عباده الموحدين بالنصر ولو بعد

حين ، فإنه مهما طال أمد الصراع سيحسم بالنهاية لصالح أصحاب الحق الشرعيين من العرب والمسلمين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ .

صدق الله العظيم

والحمد لله رب العالمين

الدكتور حسن الباش

2003

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

شكلت القدس ومازالت تشكل في المنحى العقيدي أهم منطقة في العالم، وذلك حسب العقائد الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام. وعلى مدى التاريخ سجلت هذه المنطقة حوادث وصراعات دامية ومستمرة كانت أسبابها متعددة كما هي نتائجها.

ولاشك في أن الشعوب التي غزتها أو طمعت باحتلالها كان لها أسبابها العسكرية والاقتصادية والتوسعية، وما إلى ذلك من تنافس الإمبراطوريات القديمة، وتصادمها حضارياً وعسكرياً. وقد أولى الباحثون هذا الجانب كثيراً من اهتماماتهم، فخرجوا بنتائج وأسباب وأوضحوا ما كان غامضاً من التاريخ وجغرافية التاريخ.

وقد تجمع لدى القارئ عشرات الكتب التاريخية التي تتجه في أسلوبها ومعالجتها نحو توضيح أهمية ما أطلقوا عليه الديار المقدسة في فلسطين، وعلاقتها بالشعوب التي سكنت أرضها، وبالشعوب التي تعيش ضمن هذا الحوض العربي الكبير، وبالشعوب الطارئة التي قدمت من مناطق غير عربية واستوطنت فيها.

قالت معطيات التأريخ - في غالبيتها غربية - إن فلسطين أو أرض كنعان تعرضت لغزوات كبيرة. كغزو الفلسطينيين لساحل فلسطين، اللذين يطلق عليهم سكان الجزر اليونانية، أو كغزو الآشوريين والبابليين ومن ثم الفرس والمقدونيين ثم الرومان. هذا فيما قبل ميلاد السيد المسيح. ثم تحدثت المعطيات عن غزوات الصليبيين والتتار في القرون الوسطى.

ولئن كانت غزوات الصليبيين أقرب إلينا من حيث وصول الحقائق والحوادث من أكثر من طرف مؤرخ، فإن غموضاً كبيراً يكتنف فترات ما قبل التاريخ الأمر الذي جعل الباحثين يتناقضون أحياناً ويتفقون في بعض الأحيان.

ولاشك في أن الباحثين المتأخرين أصبحوا أكثر عرضة للهوى القومي أو العقيدي أو المصلحي مما مسح بحوثهم بمسحة عدم الموضوعية أو تزييف الحقائق، واللعب بالمادة التاريخية حسب ما يمليه عليهم حسهم القومي أو الديني، أو حسب ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية الصرفة. ولعل مسألة القدس من أكثر المسائل التي تعرضت في التاريخ لهذه الإملاءات، ولاسيما من الباحثين الأوروبيين والمستشرقين الذين دأبوا منذ القرون الوسطى على تزييف التاريخ وقلب الحقائق، يدفعهم في ذلك عداؤهم للعقيدة الإسلامية، وسيطرة الأساطير التوراتية على عقولهم ونفوسهم، ودفع شعوبهم لاستعمار هذه الأرض والسيطرة عليها.

ومن الجدير ذكره أن القارئ ما يزال تحت سيطرة المقولة الغربية، بأن البحوث الصادرة عن الغرب هي البحوث الأكاديمية الموضوعية التي لا تُجارى، وأنها هي المصادر الموثوقة التي يجب العودة إليها للحصول على المعلومة الصحيحة الحقيقية، وهذا ما أفقد الباحثين العرب وغير العرب من المنصفين ثقتهم بأنفسهم وبأبحاثهم، وكذلك الأمر بالنسبة للمثقف العربي، فقد بات وقد سيطرت عليه هذه المقولات الغربية، حتى أصبحت لدى الكثيرين منزَّلة من الأعلى، ما أدى إلى تسليم الإنسان العربي لكل ما يقوله الغرب عن الأرض الفلسطينية وعن السلام، وحسن الجوار والوعود بالجنة الأرضية.

ولعل العمل الجاد للحركة الصهيونية والإعلام الغربي أثمر ثمره في المجتمعات العربية والإسلامية، وبات العقل العربي مهيّأ للغسل الثقافي، كما هو مهيأ للغسل السياسي والاقتصادي والتاريخي.

هل أصبحت القدس أرضاً لليهود؟ وهل بات العقل العربي مقتنعاً بأن فلسطين ليست للعرب وحدهم؟ هل هذا هو الأمر الواقع؟.

هل تقف حدود الصراع عند الجانب الوطني أو القومي؟ أو أن هناك صراعاً عقيدياً بدأ ولن ينتهي؟ أو أن الصراع العقيدي بات من الشمول النظري والعملي يضم في قلبه الجانب الوطني والقومي؟.

ثمة تساؤلات كثيرة من حق أي مخلوق عاقل أن يسألها، وذلك يفرضه الإحساس الداخلي لهذا المخلوق، وكذلك الإحساس العقلي بالمستقبل، إن صحّ التعبير.

منظرو الحركة الصهيونية يرون في القدس عاصمة (إسرائيل) الأبدية، وكذلك كُلّ اليهود الذين يستمدون هذه المقولة من مستندات تاريخية وإيديولوجية خاصة بهم. واليهود مستعدون أن يشنوا الحرب تلو الحرب ولو أدى ذلك إلى تدمير المنطقة كلياً في سبيل بقاء القدس عاصمة لدولة اسمها (إسرائيل).

واقتضت المصلحة الغربية الأميركية الموافقة كلياً على هذه المقولة، يدفعهم في ذلك فكر بروتستانتي يستند على مقولة (التوراة هي الأساس) ويجب العودة إلى نصيّة الحرف التوراتي، وإحياء التراث اليهودي المتميز.

والمسلمون المتنورون الملتصقون بالقدس روحياً وجغرافياً وتاريخياً يرون أن القدس أرض عربية وإسلامية، علاقتها وطيدة بالقرآن الكريم، ولا يمكن التفريط بها ولو أدى ذلك إلى حروب تستمر الزمن كله.

إذاً كيف تحل المعادلة؟.

وفي هذا الإطار لابد إذاً من العودة إلى التاريخ. لابد إذاً من العودة إلى المستند العقيدي الذي يستند عليه كل من اليهود والمسلمين.

وإذا كان التأريخ لعب لعبته وزيّف الحقائق، فإن المستند الحقيقي ولاسيما القرآني يقف أمامنا شاهداً وموضحاً بشكل دقيق وموضوعي بعيد عن التزييف والخداع.

ونحن إذ نقف أمام التوراة تسعفنا نصوصه بشكل جيد لتوضح لنا الأمور بما لا يدع مجالاً للالتباس أو الشك، وإذ يرى المسلمون أن التوراة التي بين أيدينا اليوم هي مزوّرة ومحرفة فإن اليهود يرفضون هذه المقولة رفضاً قاطعاً، ويرون أن هذه التوراة قد كتبت بإصبع الله كما ورد في سفر الخروج.

وإذ يناطح اليهود لتثبيت رؤيتهم فنحن لن نكون على خلاف معهم. ونحن أمامنا هذا النص التوراتي نقرؤه سفراً سفراً وصفحة صفحة وسطراً سطراً، لنرى الحقائق ونرى التاريخ، ونرى كل شيء ينطق ويفصح عن نفسه.

وكذلك الأمر عندما نضع آيات القرآن الكريم بين أيدينا تحاورنا ناطقة وتفتح لنا الأفق لترينا الحقائق والتاريخ وكل شيء ينطق ويفصح عن نفسه.

وإذا كان النص القرآني وكذلك النص التوراتي قد مضى على تدوينهما أكثر من ألف سنة فإنهما ما يزالان في عقولنا وبين أيدينا. وعلى أقل تقدير فإن التوراة ظلت على حالها منذ ألف سنة إن لم نقل ظلت على حالها مع انتهاء الفترة الرومانية في فلسطين، أي حوالي 1500 عام تقريباً.

وفي هذا الإطار لابد من التوقف طويلاً عند علاقة القدس بالتوراة. متى ظهرت؟ كيف تطورت؟ وما هي سماتها الجغرافية والروحية، وحتى سماتها الرومانسية. ما هي سماتها القدسية المرتبطة بالمقدس الإلهي أو البشري؟.

وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين القرآن الكريم والقدس. كيف ظهرت وكيف فُسرت، ثم ما هو شأنها في العلاقة بين ماضيها ومستقبلها؟.

وهل تصبح القدس مركز الصراع الكوني العقيدي، كيف ولماذا وما هي القوى التي ستكون على طرفي الصراع؟.

لقد أسست الصهيونية المعاصرة نظريتها على أسس مختلطة تجمع بين المستند التوراتي والمستندات السياسية والاقتصادية. وإن كان كثير من الباحثين يرون أن قيام (إسرائيل) وتركيزها في المنطقة ما هو إلا زرع لرأس حربة إمبريالية تمثل الرأسمالية

الغربية، فإن ذلك صحيح، ولكنه ليس الهدف الوحيد أو الأساسي. إنها ليست قاعدة متقدمة للإمبريالية الأميركية فحسب بل هي في المنظور الأساسي البؤرة الأكثر تحدياً للتاريخ الإسلامي والفكرة الأكثر عداءً للعقيدة الإسلامية. وهذا العداء لا يأتي بسبب الخلاف العقيدي بين عقيدتين بل هو تناقض واسع بين منظورين سياسيين ومستقبلين مختلفين في الرؤية ومختلفين في الأسلوب ومختلفين في المنهج والسبيل.

لقد استفاد التنظير الصهيوني من معطيات التوراة دون أي اعتبار للتفسيرات التاريخية غير الصهيونية، ودون أي اعتبار لكثير من الحقائق التي تناقض تماماً تلك المقولات.

وقد استطاع التنظير الصهيوني أن يثبت مقولة أن التوراة كُتبت بيد الله، وهي كلام الله، وعلى الرغم من أن التوراة بما تضمه من أسفار وهي تسعة وثلاثون سفراً، كتبت على مدى سبعة قرون، إلا أن النظرة اليهودية، بشكل عام، ترى أن كل ما جُمع فيما يسمى العهد القديم هو ما يطلق عليه التوراة، وهو كتاب مقدس يرتبط بالله ارتباطاً وثيقاً.

وحتى يلجأ كل الباحثين إلى المصادر الأساسية في التدوين التاريخي فقد ركز منظرو الصهيونية على فكرة أن التوراة هي الكتاب المدوّن الوحيد الذي وصلنا قبل أي كتاب آخر ولا سيما أنه يتحدث عن التاريخ القديم مرتبطاً بالقدس.

وهنا يكمن إصرار اليهود على ارتباط التوراة بما يسمى الأراضي المقدسة ـ القدس وما حولها ـ وهذا الارتباط قائم أساساً على التأسيس الكهنوتي اليهودي لتعاليم التوراة، وحديثها عن مجريات التاريخ، ومعالم الجغرافيا التي استند عليها التاريخ مكانياً.

والواقع أن الحركة الصهيونية، وخاصة بعد قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، وجدت أنَّ تمثّل الجانب التوراتي في تثبيت الكيان هو الأهم بين كل الجوانب. فقيام الكيان نفسه مستنداً على مقولة الاستيطان الاستعماري أو مقولة القواعد العسكرية

المتقدمة، لم يعد يحتمل المبررات الدولية، ولم يعد مقبولاً عالمياً بعد أن تغيرت أساليب الاستعمار وتغيرت وجوهه. فجنوب إفريقيا، وعلى الرغم من حركة الاستيطان الغربية التي استمرت مئات السنين، استطاعت أخيراً أن تعيد لنفسها وجهها الإفريقي؛ لأن المستوطن الغربي لم يجد ما يبرر بقاءه تاريخياً أو تراثياً أو دينياً.

من هنا فإن المستند العقيدي لليهود المرتبط بشكل ما بالمستند التاريخي هو الذي يبقى في أسس الصراع، إلى حين يتصدى له النقيض المستند على المعطيات العقيدية.

لقد تراوحت رؤية الصراع بين العرب واليهود من الجانب الوطني، أو القومي إلى الجانب الديني العاطفي، البعيد عن الرؤية الفكرية ذات المنهجية القرآنية التي تربط بين المعطيات العقيدية والتاريخية والجغرافية، ولكثير من الأسباب غابت هذه الرؤية أو غيّبت. وهذا ما منح اليهود فرصة كبيرة لتثبيت مقولاتهم العقيدية والتاريخية المرتبطة بالقدس، والرابطة بين التوراة والقدس وفلسطين، ولاشك في أن الرؤية العقيدية الإسلامية للصراع حول القدس وفلسطين لم تظهر بشكل جلي وواضح إلا من خلال ما طرحته الأفكار الفردية لبعض المفكرين المسلمين، ثُمَّ من خلال ما طرحته بعض الحركات الإسلامية في فلسطين.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن النص التوراتي والنص القرآني أُخضِعا في كثير من الأحيان لتفسيرات وتأويلات قد لا يحتملانها. ففي النص التوراتي يستطيع المتابع لمسلسل الأسفار أن يقرأ بوضوح ما إذا وُجدت موافقات أو متناقضات أو ثغرات.

وفي ذلك ليس للتأويل مكان. أما في النص القرآني فيحاول ـ المحاولات المستمرة لا تتوقف ـ أصحاب الرؤية الإسلامية إيجاد روابط نصيّة من القرآن الكريم تدعم مقولات الصراع والإيمان المطلق بانتهاء هذا الصراع لصالح الطرف الإسلامي.

ويستمر الاجتهاد الإسلامي في تفسير النص القرآني، الذي يتجاوز أحياناً ما قدمه المفسرون المسلمون على مر القرون، وذلك على اعتبار أن هذا النص مفتوح وليس مغلقاً، ومن حق المسلمين أن يجتهدوا في كثير من قضاياه التي تحتمل التفسير والتأويل.

وهذا ليس معناه أن النص القرآني المكشوف والمتعلق بالقدس وفلسطين يبتعد أو يوغل في الغرابة، بحيث يجعل الباحث في مأزق التفسير والتأويل، ليفتش عما يدعم وجهة نظره، لكن النص القرآني في صورته الأساسية كما جاءت في كتاب الله الكريم تمنح القارئ أو الباحث اطمئناناً واضحاً لمعرفة الاتجاه المبدئي في الصراع بين الرؤية الإسلامية والرؤية اليهودية. ولكن استمرار الخلاف في التفسير والتأويل والاسقاطات بين المسلمين أنفسهم، دفعهم أكثر وأكثر باتجاه إيجاد هوامش إضافية تفسيرية تسند المقولة الأساسية وتدعّم موقفها. وقد نجد أن هذا الاتجاه أو ذاك حمّل النص القرآني أكثر مما يحتمل، أو أنهم أباحوا لأنفسهم رسم الصورة الكلية للصراع من خلال تفسير المفردات والتركيبات القرآنية تفسيراً يخدم الهدف الأساسي لرؤية الصراع.

وعلى مدى الخمسين عاماً الماضية شهدت فلسطين جولات من الصراع كان الطرف اليهودي فيها أو في غالبيتها المنتصر والأقوى.

ولاشك في أن أدوات الانتصار والخسارة كانت في المنظور المادي وفي الميزان البشري تشير دوماً إلى تفوق القدرة اليهودية على القدرة العربية مجتمعة. وقد اعتبرت أسباب الصراع أسباباً جغرافية يحكمها المنظور القومي حيناً والمنظور الوطني حيناً آخر، والمدقق في دوافع الصراع العربي اليهودي يجد اختلالاً واضحاً في الرؤية بين الطرفين؛ فالجانب العربي غيّب الرؤية القرآنية واعتبرها أمراً غير واقعي لا يتماشى مع معطيات الصراع المادي العسكري وغيره. وفي هذا المنظار لم تشكل القدس أية أهمية خاصة أو استثنائية، بل اعتبرت أرضاً احتل جزء منها، وهي تراب وحدود ووجود سكاني عربي. أرض عربية احتلت وتشبث المحتل بها، وطرد أهلها وسكانها، وهدم بعضاً من معالمها، وإذا ما زيد في هذه الرؤية أضاف أصحاب الرؤية القومية أو الوطنية مقولة أن القدس ترتبط بتراثنا الديني فهي مهد المسيح ومسرى محمد ﷺ.

أما الجانب اليهودي، فإضافة لكل مقولاته المادية التي طرحها مبررات للاحتلال فإنه أولى الجانب العقيدي الأهمية الأكبر. فالقدس أرض وعد الله بها شعب يهود ولم تعرف القدس في التاريخ القديم عقيدة أخرى سوى العقيدة اليهودية. وهي أول أرض أقام فيها أبرز ملوك بني (إسرائيل) وأنبيائهم، ولذلك فإن معطيات الصراع مهما بلغ من عنف، لا يمكن إغفالها أو التنازل عنها، لأنها أساساً تستند على علاقة الله بالأرض وعلاقة الله بشعب إسرائيل. وبهذا المعنى فإن الارتباط العضوي الذي صنعه منظرو الصهيونية بين اليهود والقدس يستند على مُسلَّمة إلهية قدرية، ينفذها على الأرض الشعب المختار بأمر إلهي لا مردّ له ولا انحياز عن خطه.

ولعل هذا التركيز اليهودي على هذه المقولة هو الذي منح اليهود قيمة التشبث بأرض القدس. ويصبح لدى اليهودي اقتناع راسخ أن لا قيمة لكيان إسرائيل بدون القدس ولا قيمة للقدس بدون الشعب اليهودي.

وبهذا استطاع بناة الكيان الصهيوني خلق جيل من اليهود الذين لا تفارقهم الرؤية العقيدية للقدس. وبهذا استطاعوا أن يرجحوا كفة الميزان لصالحهم، إن كان ذلك على المستوى النظري التنظيري أو الإعلامي والتربوي الداخلي والخارجي، وعلى مستوى الثقافة الخاصة التي فرضوها حتى في أوساط المجتمعات الغربية جميعها.

والجانب اليهودي يرى من خلال هذه الرؤية أن لليهود حقاً إنسانياً لتحقيق حلمٍ ظل ملتصقاً بهم على مدى ألفي عام، وأن المطلب ببقاء الأرض بين أيديهم هو مطلب شرعي ونبيل.

ولاشك في أن هذا الجانب المستند على المقولات التوراتية يصبح في حالة من الحالات حساً رومانسياً يتلبسه الحب والوجدان، تماماً مثلما يتلبسه الجانب التاريخي والعقيدي. ولاشك في أن هذه الحالة اليهودية تستدعي السؤال عن مدى وجود هذا الحس في الطرف الآخر من الصراع وهو الجانب الإسلامي.

صحيح أن هناك مستنداً قرآنياً دينياً ولكن أيضاً في تجليات الوجدان الإسلامي، تشكل القدس مكاناً جغرافياً رومانسياً، فالجانب العقيدي نفسه منح الجانب الإسلامي ارتباطاً روحياً وجدانياً تختلط معالمه بمعالم الجانب القرآني العقيدي.

ومن الواقعي في هذه الحال أن يصبح الصراع المحتدم الذي سيكبر احتدامه مستقبلاً مأسوراً كلياً لعملية فناء طرف من طرفي الصراع، لأنه لا يمكن أن تحلّ المسائل الصراعية بهذه السهولة؛ لكون المتصارعين يتمسكان بمشروعية الحق المستند على أسباب هي نفسها لدى كل طرف، وهذا ما يحتم الصراع حتى فناء أحدهما، وليس هناك بدائل أو غيرها، لأن المسألة ليست فقط مسألة تراب جغرافي مجرد. إنها مسألة المقدس الإلهي العقيدي، ومسألة المقدس النفسي الوجداني، ومسألة المقدس التاريخي المتواصل والمترسخ في العقل والوعي.

إن خمسة آلاف عام من الوجود الفلسطيني في الأرض العربية الفلسطينية، وكذلك إن أربعة آلاف عام من التجليات التوحيدية في أرض فلسطين، وكذلك إن ألفاً وأربعمائة عام من إرهاصات النص القرآني بشأن القدس، إن هذا كله يختزن في العقل العربي الإسلامي اختزاناً ليس قابلاً للمسح أو البتر أو التغيير.

وما ينطبق على الجانب الإسلامي ينطبق على الجانب اليهودي. فهناك الوجود اليهودي على أرض فلسطين، وهناك مقولات النص التوراتي، وهناك التلبّس للعقل اليهودي من قبل الذكريات الممتدة مئات السنين، التي لا تنفصل عن هذا الحلم الذي يسمى القدس وأرض الميعاد.

إن أية حلول لقضية القدس لا تخرج عن دائرة الإصرار اليهودي ببقائها عاصمة أبدية لدولة (إسرائيل). وهذا ما سينفي قطعياً أبدياً مجرد تفكير العرب بتنازل اليهود عن القدس، مهما تم من اتفاقات، ومهما ابتدعوا من أساليب الترويض العقلي أو النفسي. وما من شك في أن الطرف العربي، خاصة ذلك الذي وَقَّع الاتفاقات مع الكيان الصهيوني على الصلح والتطبيع، لن يكون جدياً بالمطالبة بعودة القدس إلى ما كانت عليه قبل عام 1967؛ لأن ذلك لا يعنيه على المستوى العقيدي إلا بقدر هامشي

ضعيف. ولعله تحت مظلة العناد الصهيوني والتوجه الغربي الأميركي الضاغط، سيتنازل حتى عن الحديث النظري بشأن القدس. فهو محكوم لاتفاقات صلح، تقيده أو يقيّد نفسه بها، ما دام أن الاتفاقات بين هذا الطرف والطرف الصهيوني أملتها الإرادة الصهيونية ووضعت بنودها وشروطها، وطبيعي أن توقيع هذه الاتفاقات استثنى موضوع القدس، أو أُجل البحث فيها لأجلٍ غير مسمى، وفي كل الحالات فإن توقيع هذه الاتفاقات يعني التنازل عن القدس تنازلاً كلياً دون أي اعتبار لمعطيات النص القرآني، أو لمعطيات التاريخ والجغرافيا. وواقع الأمر أن التنازل عن القدس عملياً قد تم منذ زمن بعيد، وذلك بسبب تهميش البعد العقيدي للصراع إن لم نقل نفيه. والجانب الصهيوني يدرك هذه المسألة تماماً، ويعرف أن تغييب الجانب العقيدي الإسلامي المرتبط بالقدس، هو الحل الأمثل لديمومة بقاء الكيان في القدس بقاءً لا تحده أية حدود زمنية.

لعل أكثر ما يقلق الكيان الصهيوني الآن هو بروز التيارات الإسلامية الجهادية التي ترى أن الصراع على القدس وفلسطين هو صراع عقيدي بالدرجة الأولى، ولهذا يحاول الصهاينة على كل المستويات المحلية والعربية والدولية حشد القوى البشرية والإعلامية والثقافية وغيرها؛ للقضاء على التوجه الإسلامي الجهادي المستند في صراعه على البعد القرآني العقيدي.

وإذا كان أصحاب هذه الرؤية قد تعرضوا لضربات ميدانية على أيدي قوات الكيان الصهيوني، والأنظمة التي وقعت اتفاقات الصلح معه، وسلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، فإنهم على المستوى التنظيري استطاعوا الانتشار فكرياً، وأصبح الإيمان بالحل العقيدي للصراع هو السائد لديهم. وبسبب ظروف كثيرة أدت كلها إلى نكسات على المستوى القومي العربي والوطني، فإن التوجه نحو الحل العقيدي للصراع يصبح الملاذ الأهم لكلّ من تضرروا من أبناء الفلسطينيين والعرب ولاسيما الذين استثنت اتفاقات الصلح عودتهم إلى أراضيهم، ووضعتها في زاوية هامشية أطلق عليها مشكلة اللاجئين. إن بوادر الصراع العقيدي ظهرت منذ أكثر من عشر سنوات، وهي مهيّأة للامتداد والانتشار والصدام، تمهيداً لاستنهاض المسلمين وفصل المعركة النهائية.